ظاهرة العدول بين الاسم المذكر والاسم المؤنث في نماذج من قصص القرآن الكريم (دراسة بلاغية أسلوبية)

د. فاطمة بشير وداعة

ملخص البحث

تناول البحث ظاهرة لغوية وبلاغية وأسلوبية بارزة، وهي العدول بين الاسم المذكور والاسم المؤنث، نماذج في قصص القرآن الكريم؛ لاستكناه أسرار التعبير الفني، وتبيُّن نكتة العدول، ومقتضاه البلاغي والدلالي في القصة القرآنية.

ولا يكون العدول إلاَ لنوع خصوصية اقتضته، أي: أن فيه من القصدية ما يوجب البحث في غاياته ومراميه، وهي المشكلة التي عالجها البحث، باستجلاء المعاني البلاغية والصور الأسلوبية لإحلال جنس اسمي محل الآخر في قصص القرآن الكريم.

وقد تناثرت بعض نماذج هذا العدول في كتب التراث، وبعض كتابات المحدثين، إلا أنها لم تتعرض للأغراض البلاغية والنكت الأسلوبية إلا نادراً، كما أنها لم تقصره على قصص القرآن.

وجاء البحث مشتملاً على موضوعات أهمها: العدول عن الاسم المذكر إلى الاسم المؤنث والعدول عن الاسم المؤنث إلى الاسم المذكر، وتحليل نماذج من آيات من قصص القرآن الكريم مع إيراد بعض الشواهد الشعرية.

وتبيَّن أن العدول عن مبنى إلى مبنى آخر، يؤدي –حتماً- إلى العدول عن معنى إلى معنى آخر، وأنه يتم للطائف بلاغية أهمها: التغليب، وأن العدول للمؤنث متعلق بالجمع وهو ما يتوسع في تذكيره وتأنيثه.

مقدمة:

يقوم هذا البحث على دراسة نوع من أنواع العدول، وهو إحلال صيغة من جنس الاسم محل أخرى –ومراميه البلاغية والأسلوبية.

والعدول يشمل كل تحوُّل، أو انحراف في نسق التعبير، كالحذف، والتقديم والتأخير، والعدول في صيغ الأفعال، والعدول الاسمي، والالتفات...إلخ. وهو ما عُبِّر عنه بلاغياً بالعدول عن أصل القاعدة، أو أصل الوضع، ويأتي لأغراض بلاغية؛ لأن الدراسات السياقية ترفض أن يكون هناك تغيُّر في نظم الكلام، لا يكون معه تغيير في المقاصد والأغراض، أي أنَّ للعدول خصوصية تقتضيه، وفيه من القصدية ما يوجب البحث في غاياته ومراميه. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يدرس ظاهرة التناوب بين الاسم المذكر والاسم المؤنث في قصص القرآن الكريم دراسة بلاغية أسلوبية، وتحليلها؛ لاستنباط الأبعاد الدلالية، واللطائف البلاغية المستقاة منها وأثر السياق والمقام فيها.

وقد وردت بعض نماذج هذا العدول في كتب التفسير، وعلوم القرآن البلاغة، وبعض كتابات المحدثين، إلاَّ أنها لم تول جانب التحليل البلاغي والأسلوبي اهتماماً كبيراً.

ولأهمية البحث نسعى للإجابة عن هذه الأسئلة:

ما صور العدول في جنس الاسم في قصص القرآن الكريم؟

ما الغايات الفنية والمعنوية والبلاغية وراء هذا العدول؟ وما أبعاده الأسلوبية؟ وما أثر السياق والمقام للقصة القرآنية في توجيه دلالات الصيغ الاسمية؟

أهداف البحث:

- استقراء بعض صور العدول الاسمي في قصص القرآن الكريم.
- ربط صور العدول في جنس الاسم بمقتضى الحال، واستكناه مراميها البلاغية والأسلوبية.
- إبانة ما للعدول في جنس الاسم من غايات ولطائف فنية وإيحائية.

جاء البحث محصوراً في العدول بين الاسم المذكر والاسم المؤنث، مشتملاً على مقدمة ومبحثين وخاتمة. تناول

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المبحث الأول الجانب النظري للدراسة؛ فيه التعريف بالعدول، وقصص القرآن، والبلاغة، والأسلوبية، والمصدر، والاسم المذكر والاسم المؤنث..

أما المبحث الثاني فهو الجانب التطبيقي، واشتمل على مطلبين: الأول العدول عن المؤنث إلى المذكر، والمطلب الثاني: العدول عن المذكر إلى المؤنث. وخُتم البحث بأهم ما توصل إليه من نتائج، ثم قائمة المصادر والمراجع.

أهمية الدراسة وأهدافها:

إن هذا البحث لا يقف عند حدود القواعد اللغوية، بل يتجاوزها بالدراسة والتحليل لاستنباط الأبعاد الدلالية المقصودة من مخالفتها واللطائف البلاغية المستقاة منها وأثر السياق والمقام فيها خاصة سياق القصة موضع العدول وجوها العام.

منهج الدراسة:

لقد نهجتُ في الدراسة منهجاً تحليلياً وصفياً.

كلمات مفتاحية:

العدول

الأسلوبية

الإطار النظري:

المبحث الأول: مفهوم العدول:

العدول لغة: يعني الميل عن الشيء أو الطريق (١)

وفي الاصطلاح: ميل عن النظام أو الأصل اللغوي، أو هو خروج عن المألوف في النظام اللغوي. (٢)

وفي تراثنا إشارات لمفهوم العدول عند اللغويين والبلاغيين والمفسرين كالمجاز، والالتفات، والانحراف، والتحول، والصرف، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه.

ويعظم له المحدثون: الانحراف والانزياح والانتهاك والمخالفة. (٣)

وهذا الخروج والعدول لا يكون إلا لدواعٍ بلاغية ودلالية مقصودة لأن البلاغيين لا يعتدون من حيث القيمة الجمالية إلا بما يمثل عدولاً عن أصل معنى الكلام.

قصص القرآن:

(هي إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم وما حدث بينهم وبين بعضهم،أو بينهم وبين غيرهم أفراداً وجماعات من كائنات بشرية وغير بشرية بهدف الهداية والعبرة.) (٤)

ومن هنا ندرك أن القصص القرآني ليس حصراً في أخبار الأنبياء – عليهم السلام – بل تتعدى لتشمل كل القصص التي وردت في الذكر الحكيم.

بما أن هذه الدراسة يتعاورها علمان – البلاغة والأسلوبية فسيُمَهَد لها بالتعريف بهذين العلمَيْن.

البلاغة والأسلوبية:

تعتبر البلاغة من اشرف العلوم عند العرب لأنها كانت من الأدوات المهمة لفهم القرآن الكريم وإدراك إعجازه.

والبلاغة في اللغة الانتهاء والوصول، (يقال، بلغ الشيء ويبلغ بلوغاً وبلاغاً، وصل وانتهى إلى مراده) (٥)

(والبلاغة الفصاحة، رجل بليغ وبَلْغٌ وبلْغ حسن الكلام فصيحة يُبْلَغ بعبارة لسانه كُنْهُ ما في قلبه) (٦). وبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ. (٧)

والأسلوبية: هي علم الأسلوب، والأسلوب، (الطريق تأخذ فيه والأسلوب الفن). (٨) يقال: (أخذ فلان في أساليب من القول، أي: أفانين منه).(٩)

إن كلمة أسلوب في العربية تختلف عن اشتقاق كلمة (style) في الإنجليزية أو الفرنسية فهي مأخوذة من اللاتينية (stilus) وتعني الريشة أو القلم أو (مثقب الكتابة).(١٠)

أما الأسلوبية (stylistics) فهي مصطلح حديث مرادف لمصطلح علم الأسلوب. وتتناول الأسلوبية النص عبر مستويات أهمها العنصر اللغوي، والعنصر النفعي الذي تدخل فيه عناصر غير لغوية والعنصر الجمالي ويكشف عن تأثير النص في المتلقي.(١١)

ويرتبط العلمان بصلات وثيقة، فإن جذور علم الأسلوب ترجع إلى علم البلاغة والتي هي علم الأسلوب العربي.

الاسم المذكر: ويتعرف المذكر بأنه ما يصح أن يشار إليه بـ (هذا) كـ(رجل، وكتاب) وهو إما حقيقي وهو مادل على ذكر من الناس أوالحيوان كـ (رجل، وأسد) أو مجازي نحو" بدر، وليل،وباب.

الاسم المؤنث: والمؤنث ما يصح أن يشار إليه بـ (هذه) كـ (امرأة وناقة وشمس)١٢،

وللتأنيث علامات قام عليها تعريف الزمخشري وابن الحاجب للنوعين: "

يتعرف المذكر بأنه ما خلا من العلامات الثلاث: التاء، الألف، الياء في نحو غرفة، وحبلى وحمراء، وهذي والمؤنث ما وجدت فيه إحداهن"١٣

المبحث الثاني

مدخل:

من المعروف أن لكل من الألفاظ المذكرة والمؤنثة مواضعها في اللغة العربية، فلا يأتي أحدها في موضع الآخر، إلا في مواضع معينة ولعلة ما، وقد يؤثر الذكر الحكيم أن يغلب أحدهما على الآخر لعلة بلاغية ودلالية يقتضيها المقام.

الكلام في الجنس من المسائل القديمة التي بحثها اللغويون، وخلفوا مؤلفات تحمل عنوان (المذكر والمؤنث) على سبيل المثال:(المذكر والمؤنث) للفراء و(المذكر والمؤنث) لأبي بكر الأنباري وغيرهما.وقد اعتبروا المذكر أصلاً، والمؤنث فرعاً يجب رده إليه عند الالتباس، كما يقول ابن جني" تذكير المؤنث واسع جداً، لأنه رد فرع إلى أصل، لكن تأنيث المذكر أذهب إلى التنكير والإغراب" ١٤

ولكن كون المذكر أصلاً لا يخرج العدول إليه من دائرة الاستثناء لأنه يخالف أصلاً آخر وهو وجوب المطابقة بين أجزاء الكلام، ومن ثم فهو مبحث صريف بلاغي جدير بالتناول.

وأما العدول إلى المؤنث فانه يتضمن عدولين، واحداً عن القاعدة المتقدم ذكرها وهي وجوب المطابقة بين أجزاء الكلام، والثاني ترك الأصل الذي هو المذكر إلى الفرع الذي هو المؤنث حسب رأي ابن جني.

وتعد مراوحة الأسلوب القرآني بين التذكير والتأنيث نوعاً من أنواع الترابط النصّي بل تعد أثراً فاعلاً في تجلية المعنى. ومغايرة الأسلوب على هذا النحو طريقة من طرق العرب في كلامهم وأشعارهم، ففي مواضع كثيرة نجد العربية لا تستعمل الأصل ولكنها تغاير فتحدث دوراناً في الكلام بين التذكير والتأنيث.

وللأسلوب القرآني طريقته في هذه المغايرة التي لا تخلو من فائدة أو غرض بلاغي.وقد استخدم الذكر الحكيم كثيراً من الألفاظ مذكراً في موضع ومؤنثاً في آخر، ومن ذلك مثلاً: لفظ "السبيل" فقد قال تعالى:﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف ١٤٦).وقال في موضع آخر:(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف ١٠٨).حيث جاء لفظ السبيل مذكراً في الأولى ومؤنثاً في الثانية.

ولفظ (الفلك) قال تعالى:﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(الشعراء ١١٩). وفي آية أخرى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ(البقرة ١٦٤). فكان (الفلك) مذكراً في سياق ومؤنثاً في آخر، وغيره كثير مما لا يدخل في موضوع دراستنا.

والعدول في الجنس إما أن يكون عن المؤنث إلى المذكر، أو عن المذكر إلى المؤنث.

المطلب الأول: العدول عن المؤنث إلى المذكر:

يرد هذا الأسلوب في القرآن الكريم لدواع بلاغية وأسلوبية ودلالية تكتنفها ضرورات السياق والمقام ومن ذلك قوله تعالى في قصة مريم بنت عمران:﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ × يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(آل عمران ٤٢-٤٣).موضع العدول في قوله تعالى: (مع الراكعين) وهي من الراكعات، فعدل عن المؤنث إلى المذكر على وجه التغليب، لأن المقام مقام حث لمريم أن تجتهد في عبادتها، وأن تكون في زمرة الطائعين لله. وقال الزمخشري في شأن هذه الآية:"... (واركعي مع الراكعين) أي: في الجماعة أوانظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم"١٥.

والمأمور بالصلاة هم الرجال والنساء، وإذا اشترك الجنسان في أمرها فالعادة الجارية في اللغة تغليب المذكر على المؤنث، ومن ثمّ ناسب أن يأتي في هذا المقام جمع التذكير لا التأنيث، وذكر الألوسي: "أن الجمع أعمّ إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب، لأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا إنها مأمورة بصلاة الجماعة... ولمناسبة رؤوس الآي"١٦.

وعلى سبيل النمط من تغليب جانب المذكر على المؤنث نرى لفظ (القانتين) في شأن مريم بنت عمران نفسها في موضع آخر من القرآن، تتجلى فيه البلاغة القرآنية المعجزة، وذلك في قوله تعالى:﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(التحريم ١٢).موضع العدول في قوله تعالى: (القانتين) معدولاً به عن (القانتات)، فذكر الزمخشري أنه للتغليب

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

كما في الآية السابقة١٧.

وإلى ذلك ذهب الخطيب القزويني، فإن التغليب - عنده - باب واسع يجري في أمور كثيرة "... عُدَّت الأنثى من الذكور بحكم التغليب هذا على أن (من) تبعيضية، ويجوز جعلها ابتدائية على أن المراد بالقانتين آباؤها الأولون كـ(إبراهيم واسحق). والأول أبلغ؛ لما في التغليب من الإشعار أنها بلغت في طاعتها مبلغ أولئك الرجال القانتين حتى عُدّت منهم" ١٨. وفي ذلك دلالة على معنى الخصوص، أي أنها من ذرية قوم قانتين، وعلى هذا يكون التغليب من باب التشريف لمريم.(١٩)

أما صاحب(التحرير والتنوير) فيقول:" وهذه الآية مثال في علم المعاني، ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأن شأن ذلك أن يكون للرجال، لأن نساء بني اسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة " ٢٠.

ونلحظ أن هذه النكتة البلاغية قد تكون سبباً للعدول في آية سورة آل عمران، لا سيما أن الآيتين تخاطبان شخصية واحدة وهي مريم -عليها السلام- وتأمرانها بالصلاة والقنوت، بمعنى أنها قد تجاوزت بعبادتها بنات جنسها وأتت من الطاعات ما لم تأت به النساء على عهدها، وهذه تزكية خلدها لها القرآن العظيم،إذ أنها صبرت على العبادة كما صبرت على الحمل وهي عذراء، وعلى مواجهة قومها حيث أتتهم تحمل ابنها بين يديها، كل ذلك جعلها تزكو على بنات جنسها، ولم توصف بأنها من القانتات رفعة من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقتهم.

ولنبق مع هذه الآية من حيث التذكير والتأنيث مقرونة بآية أخرى، فقد قال تعالى في هذه الآية من سورة التحريم: (فنفخنا فيه)، أتى بالضمير مذكراً عائداً على (الفرج) لا على (مريم)، وجاء في الآية الأخرى من سورة الأنبياء:﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء ٩١) فقال: (فنفخنا فيها) مغايراً في اللفظ بين المقامين، ولعل الاختلاف بين التذكير والتأنيث في الآيتين يرجع إلى أن السياق في آية سورة التحريم سياق يضرب فيه المثل بمريم التي آمنت بربها محصنة فرجها ومصدقة بكلمات ربها وكتبه، فالقصد في ضرب المثل بإيمان مريم، ومن ثم ناسب أن يرجع الضمير إلى إحصان فرجها إذ يعد صورة من صور الإيمان، ولم يكن القصد فيه التعجب من حالها بالحمل عن النفخ وولادتها٢١.

أما السياق في الآية الثانية (الأنبياء) فالقصد فيه إبراز جعل مريم وابنها - عليهما السلام -آية للعالمين فناسب أن يرجع الضمير إلى مريم على أنها آية من آيات الله إذ أن النفخ فيها جعلها حاملاً، فكأنه قال: والتي أحصنت فرجها فصيرها النفخ حاملاً حتى ولدت، فلما كان القصد التعجب من حالها وأنها بالنفخ صارت حاملاً رد الضمير إلى جملتها.

وفي تغليب المذكر وجوه بلاغية كثيرة ليس منها شيءٌ يغمط المرأة وإنما يأتي لعلل بلاغية تناسب السياق وحال المذكورين ووضع اللغة، كما في قوله تعالى: (إلا عجوزاً من الغابرين) [الأعراف،٨٣]. في قصة نجاة الرسول لوط وهلاك الكفرة ومنهم زوجته، ذكر (الغابرين) يشمل الجنسين، ومن أسرار هذا التغليب الإيجاز، إذ لو قيل (الغابرات) لكانت الحاجة ملحة لإضافة كلام آخر يوضح شمول الكفار، أو المعتدين من الرجال.

ويمثل تغليب المذكر على المؤنث إذا اجتمع الرجال والنساء رعاية للعموم، والاختصار على عادة العرب، ولكون المذكر أخف لفظاً كما ذكر سيبويه:"لأنه الأول وأشد تمكناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير... الأشياء كلها في العربية أصلها التذكير ثم تختص بعد فالتذكير أول وأشد تمكنا"٢٢.

ومن نماذج هذا العدول في قصص القرآن قوله تعالى في قصة توحيد سيدنا إبراهيم -عليه السلام-:﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ × فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام ٧٧،٧٨).فقد أشير إلى لفظ (الشمس) المؤنث باسم الإشارة (هذا) المذكر، وذهب العلماء إلى تأويل ذلك على معنى (الشاخص) أو (الطالع) أي: هذا الشاخص أو هذا الطالع.

وقال الزمخشري:" فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: (هذا ربي) والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومَن كانت أمّك - وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا في صفة الله (علاّم) ولم يقولوا علامة وإن كان (العلامة) أبلغ احترازاً من علامة التأنيث".٢٣.

وقد يكون التذكير ناشئاً عن رعاية الأدب، لكون الخبر دالاً على الربوبية فالمناسب ترك التأنيث.

ونجد عند الشعراء مثل هذا العدول كما في قول عمر بن أبي ربيعة (من الطويل):

فكان مجَنّي دونَ مَن كنتُ أتَّقي
ثلاثُ شُخوص كاعبانِ ومُعصِرُ٢٤

قوله: (ثلاث) بلاء (تاء)يدل على أنه قد أنَّث(شخوص) التي هي جمع (شخص) المذكر.

ومما ورد بالتذكير صيغة (فعول) في قوله تعالى في حكاية عن مريم بنت عمران ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا × يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(مريم ٢٧-)٢٨.

فقد وردت (بغيا) مذكرة مع أنها وصف للمؤنث، وعلل لذلك الزركشي بقوله:" أُسقطت الهاء لأنها مصروفة عن (باغية)، مثلها قوله تعالى: (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس ٧٨). ولم يقل (رميمة) لأنه معدول عن (فاعلة) وكل ما كان معدولاً عن جهته ووزنه كان مصروفاً عن (فاعلة)"٢٥.

ولفظ (بغيّ) وزنه الصرفي (فعول) والأصل فيه (بغويٌ) فلما التقت الواو والياء سبقت إحداهما بالسكون أدغمت الواو في الياء فقيل (بَغيّ) كما نقول امرأة (صبور) بغير (هاء) لأنها بمعنى صابرة. ٢٦.هذا حكم (فعول) إذا عدل عن (فاعله) فإذا عدل عن مفعول جاء (بالهاء) كما في قول عنترة (من الكامل):

فيها اثنتانِ وأربعونَ حلوبةً
سوداً كخافيةِ الغُرابِ الأسحم ٢٧

فقال (حلوبة) ولم يقل (حلوب) لأنها معدولة عن مفعول أي محلوبة.

وقد ورد في الشعر العربي مثل هذا العدول للحمل أو الضرورة، كما في قول الأعشى (من الطويل):

أرى رجلاً منكم أسيفاً كأنما
يَضُمُّ إلى كشْحَيْه كفّاً مُخَضَّباً(٢٨)

فوصف (الكفَّ) بمذكر وهي مؤنثة حملاً على العُضو.

وقول طفيل الغنوي (من البسيط):

إذ هي أحوى من الرِّبعي حاجته
والعينُ بالإثمد الحاريّ مكحولُ(٢٩)

فأخبر عن العين بمذكر وهي مؤنثة، وهذا كله لضرورة يجبرهم عليها الوزن أو القافية.

وذكر ابن عصفور والزجاجي، أن مكحول قد تكون من صفة الحاجب، والعين معطوفة على الضمير في مكحول،كأنه قال مكحول هو والعين،وقدم المعطوف على المعطوف عليه.(٣٠)

المطلب الثاني: العدول عن المذكر إلى المؤنث:

وهو الأذهب في التنكير والإغراب على حدّ قول ابن جني ٣١لأنه عدول عن أصل إلى فرع، وحقيقته أن يؤنث ما حقه التذكير لفظاً أو معنى.ومنه قوله تعالى حكاية للرسول -صلى الله عليه وسلم- عن أخبار الرسل السابقين:﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة ٢٥٣). فقال (تلك) ولم يقل (أولئك)، ذكر الزمخشري أنها إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم-٣٢.وذهب الألوسي إلى أن الإشارة ب (تلك الرسل) استئناف مشعر بالتّرقي، كأنه قيل: إنك لمن المرسلين وأفضلهم فضلاً، والإشارة لجماعة الرسل الذين منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم٣٣وجيء بالإشارة لما فيها من الدلالة على الاستحضار،حتى كأن جماعة الرسل حاضرة للسامع "... فموقع اسم الإشارة كموقع ضمير الشأن أي: هي قصة الرسل وأممهم... وقرن اسم الإشارة بكاف البعد تنويهاً بمراتبهم كقوله تعالى:(ذلك الكتاب)"٣٤.

ومنه قوله تعالى في قصة الأحزاب:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(الأحزاب ٩).فقال (لم تروها) ولم يقل (لم تروهم) وهو عدول في الجنس والعدد. لأن الجنود جمع جند والمراد بهم الملائكة.

ومما ورد مذكراً مرة ومؤنثاً في آية أخرى قوله تعالى: حكاية عن إهلاك عاد:﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ × إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ × تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(سورة القمر ١٨. ٢٠) فقال (كأنهم أعجاز نخل منقعر) بالتذكير، وقال في سورة الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ × فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(الحاقة ٦. ٨). فقال:(كأنهم أعجاز نخل خاوية)

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بالتأنيث.ولقد ذكر علماء العربية والمفسرون أن النخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ ويؤنث نظراً للمعنى، وقال السيوطي" كل أسماء الأجناس يجوز فيه التذكير حملاً على الجنس والتأنيث حملاً على الجماعة " ٣٥. وتابعه في ذلك الألوسي وزاد عليه بأنه "وُضِعَت كل صفة بمكانها مراعاة للفاصلة" ٣٦.

ويرى فاضل السامرائي: أن تدمير النخل في سورة الحاقة أكثر منه في سورة القمر، يدل على ذلك السياق، ففي سورة القمر (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً). وفي سورة الحاقة (بريح صرصر عاتية) فزاد في وصف الريح بـ (عاتية) فهي أشد مما في القمر لذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر٣٧.

كما أنه قال في (القمر): (في يوم نحس مستمر) وقال في (الحاقة):(سخرها عليهم سبع ليال....) فزاد في وقت التدمير والعذاب مما اقتضى تدميراً أكثر، فالريح تقتلع وتدمر في سبع ليال أكثر مما تفعله في يوم واحد. ولما زادت الريح عتوًّا وأمداً في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تبق منهم أحداً « فهل ترى لهم من باقية » ولم يقل ذلك في القمر.

والنخل المنقعر معناه المنخلع من مغارسه، الساقط على الأرض ٣٨. فما زالت به قوة وصلابة.ومعنى (خاوية) خربة، وقيل: خلت أعجازها بلى وفساداً، والخاوية معناها معنى المنقلع وقيل لها إذا انقلعت: خاوية لأنها خوت من منبتها الذي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منها ٣٩.

ويرى بسيوني عبد الفتاح أن السياق هو الداعي لاستخدام كل من القيدين (الصفتين).وأن تشبيه القوم بأعجاز النخل الخاوية تجلَّى فيه تسخير الريح لأيام وليال حتى أن أجسامهم بليت وتآكلت، لأن النخل الخاوي هو الذي تآكلت أجوافه٤٠.فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة، فأنث الخاوي لأنه أكثر من المنقعر وأن دماره أبلغ، وقد كانت العرب تؤنث للكثرة وتذكر للقلة. كما أن هذا التأنيث ينسجم مع الأوصاف المذكورة في السورة الكريمة (الحاقة – القارعة . الطاغية. العاتية. الرابية... طغى الماء...) (هذا التجاوز في الصفات يلائمه الإبعاد في الهلاك)٤١.فصاروا كأعجاز النخل الخاوية وهذا ما ليس في سورة القمر فكان الاكتفاء باقتلاع النخل وإسقاطه على الأرض تصويراً لصرعاهم.

ومن أمثلة ذلك –أيضاً- الآيتان الواردتان في سورة (هود) حيث قال الله تعالى مخاطباً النبي ومخبراً له بقصة نوح وهود -عليهما السلام-:﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(هود ٤٩). ثم قال بعد ذكر قصص عدد من الرسل:﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾(هود ١٠٠).فأشار مرة بـ « تلك »ومرة بـ (ذلك) وذكر جُلَّ المفسرين أن (تلك) يصلح مكانها (ذلك)، أي: تلك الأنباء وذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك ٤٢.

والملاحظ أن أغلب ما ورد في هذا النوع – العدول عن المذكر إلى المؤنث – متعلق بالجمع وهو ما يُتوسّع في تذكيره وتأنيثه، ولكن يبقى عدم المطابقة عدولاً عن الأصل، والبحث في دلالته مما يستهدفه الباحث لأن التوسع لا بد أن تكون وراءه غاية ما.

ومما جاء من هذا العدول في الشعر، قول الشاعر رُوَيشِد بن كثير الطائي (البسيط):

يا أيها الراكب المُزجي مَطيَّتَه
سائل بني أسدٍ ما هذه الصوت(٤٣)

وقد فسر بعض النقاد تذكيره للصوت بعد (هذه) بأنه أراد به الصيحة أو الجلبة. وقد استقبح ذلك صاحب المفصل ".. وكأنه أراد الصيحة أو الاستغاثة وهذا من أقبح الضرورة أعني تانيث المذكر، لأن المذكر هو الأصل"(٤٤).

فتأنيث الصوت لا يجوز لأنه مصدر كالقتل والضرب، والمصادر لا تؤنث ولا تثنى ولا تجمع.

الخلاصة والتوصيات:

تبيَّن في خلاصة البحث النتائج التالية:

- أن العدول عن مبني إلى مبني، يؤدي إلى العدول عن معنى إلى معنى آخر، وانه يتم للطائف بلاغية أهمها التغليب.
- العدول للمؤنث متعلق بالجمع، وهو ما يُتوسَّع في تذكيره وتأنيثه.

وأهم التوصيات: حث الباحثين على البحث في بلاغة القرآن الكرم حتى يخرجوا جواهره المكنونة.

الهوامش:

١ - ابن منظور: لسان العرب مادة(ع د ل).

٢ - هنداوى، عبد الحميد: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم المكتبة العصرية ص١٤١.

٣ - المسدي، عبد السلام: الأسلوب والأسلوبية ص ١٠٠.

٤ - الخطيب،عبد الكريم: القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه ص ٣٩.

٥، لسان العرب مادة (ب ل غ).

٦ - المرجع السابق.

٧ - القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ص٢١.

٨ - لسان العرب (س ل ب).

٩ - الزمخشري: أساس البلاغة ص ٢١٢.

١٠ - عياشي، منذر: الأسلوبية وتحليل الخطاب ص ١٠٧.

١١ - فضل صلاح: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ص ١٥.

١٢- المرجع نفسه ص ٩٨.

١٣- الزمخشري: المفصل في علم العربية ص ١٧٢ وانظر الكافية ٢ ص ١٦١.

١٤- ابن جني: الخصائص، ٣٠١/٢.

١٥- الزمخشري: الكشاف: ١ / ٣٦٢.

١٦- الألوسي: روح المعاني:١٥٨/١٣.

١٧- الزمخشري: الكشاف ٥٧٣/٤.

١٨- الإيضاح في علوم البلاغة ص ٨١، وانظر بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي ج٢ ص ١٩٢.

١٩- الرازي مفاتيح الغيب، ج٣٠، ص٥١.

٢٠- ابن عاشور التحرير والتنوير ٣٧٩/٢٨..

٢١- شعبان، مصطفي: الإعجاز اللغوي في القرآن ص ١٢٨.

٢٢- سيبويه:الكتاب، ج١،ص٢٢

٢٣- الزمخشري: الكشاف: ج٢ ص٣٢.

٢٤- بن أبي ربيعة، عمر – الديوان ص ٨٥.

٢٥- الزركشي البرهان، ج ٣، ٤٢٢.

٢٦- المرجع نفسه ص ٤٢٢.

٢٧- العبسي، عنترة، الديوان، ص ١٥٤.

٢٨- الأعشى الكبير، الديوان، ص١١٥.

٢٩ الغنوي،طفيل، الديوان، ص٧٥.

٣٠- شرح جمل الزجاجي، ج٢، ص٥١٩.

٣١- ابن جني: الخصائص: ١:٣٠١.

٣٢- الزمخشري: الكشاف: ١: ٣٨٢.

٣٣- الألوسي: روح المعاني: ٣: ٢

٣٤- ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج٣:٦.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٣٥- السيوطي – الإتقان في علوم القرآن ج٢: ٢٤٥ وانظر الكافية: ٢: ١٥٠.

٣٦- الألوسي، روح المعاني: ٢٧: ٧٨.

٣٧- فاضل صالح السامرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: دار عمار للنشر والتوزيع – الأردن ط١٩٩٩:١م ص ٩٤.

٣٨- الألوسي: روح المعاني ٧٨/٢٧.

٣٩- ابن منظور: لسان العرب: مادة (خوى) وابن حبان: البحر المحيط ٨: ٣٢١.

٤٠- عبد الفتاح بسيوني: روافد من نهر الإعجاز البلاغي في القرآن، ص ٩٩.

٤١- المرجع نفسه صفحة ٩٩.

٤٢- اظر الكشاف: ٢: ٢٢٠ والتحرير والتنوير ١٢: ٩٢ والجامع لأحكام القرآن ٩: ٤١.

٤٣- التبريزي: شرح ديوان الحماسه،ج٣،ص٣٦٣

٤٤- الزمخشري، المفصل، ج٣، ص٣٦٣.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن النحوي: شرح شافية ابن الحاجب، تح محمد نور الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.

٣. الأشبيلي،علي بن مؤمن بن محمد بن عصفور:

- شرح جمل الزجاجي، تح فواز الشعار، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م

٤. الأعشى ميمون بن قيس، الديوان، تحقيق محمد حسين، مكتبة الادآب الجماميز، المطبعه النموذجية ١٤٣٧ه

٥. الألوسي، شهاب الدين السيد محمد البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار التراث، القاهرة، د ت.

٦. التبريزي، يحيى بن علي بن محمد، شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية بيروت ج١ ط١،٢٠٠٠

٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان:الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة بيروت دط. د ت.

٨. الخطيب،عبد الكريم:القصص القرآني في مفهو مه ومنطوقه، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ط١٩٧٥:٢م

٩. ابن أبي ربيعة، عمر: ديوانه، شرح وتح عباس إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت ط١ ١٩٩٤م

١٠. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤م

١١. الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر، د ت.

١٢. الزمخشري، أبو القاسم جار الله بن عمر:

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار المعرفة بيروت د ت.
- أساس البلاغة: مكتبة لبنان، الناشرون، لبنان ١٩٦٦م.
- المفصل في علم العربية، تح محمد عز الدين السعيدي، دار إحياء العلوم بيروت ط:١٩٩٠م.

١٣. السيوطي، بهاء الدين عبد الرحمن بن أبي بكر،

- الإتقان في علوم القرآن، تح فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت ط١ ١٩٩٩م.

١٤. السامرائي، فاضل صالح:

- التعبيرالقرآني، دار عمار، الأردن، ط٢٠٠٦ ٤م بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن،ط١، ١٩٩٩م.
- من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان،ط٢٠٠٩،١م.

١٥. شعبان، مصطفى: الإعجاز اللغوي في القرآن، المكتب الجامعي الحديث، ط١، ٢٠١٢م.

١٦. الصعيدي،عبد المتعال: بغية الإيضاح، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٩م

١٧. عبد الفتاح، بسيوني:
– روافد من نهر الإعجاز البلاغي في القرآن، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط ١ ٢٠١٠م
١٨. العبسي،عنترة بن شداد: ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، قدم له مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ١٩٩٢م.
١٩. عياشي، منذر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، د ت.
٢٠. ابن عاشور، محمد الطاهر بن: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ت.
٢١. الغلاييني، مصطفى: جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٨٥م.
٢٢. الغنوي، طفيل،الديوان ، شرح الأصمعي، تحقيق حسان فلاح، دار صادر بيروت ط١ ١٩٩٧م
٢٣. فضل،صلاح:
– علم الأسلوب مبادئه واجراءاته، النادي الثقافي، جدة، ط ١٩٨٨:٣م
٢٤. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تح إبراهيم أطفيش وأحمد البردوني، دار الكتاب المصرية القاهرة، ط٢. د ت.
٢٥. القيزويني،الخطيب محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢ ٢٠١٠م.
٢٦. المسدي، عبد السلام: الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس ط٣ ١٩٨٢.
٢٧. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، تح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ط٣: ١٩٩٩م.
٢٨. هنداوي،عبد الحميد أحمد يوسف: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ٢٠٠٨م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2